الفصل الثانى عشر

الفائزون يحصدون كل الأرباح

أعطنى سعر إقفال مؤشر نيكى والنقاط التى بلغتها أسهم ديترويت

ـ مايكل جوردان، يتحدث فى إعلان كان يلعب فيه دور أحد المسئولين التنفيذيين فى وول ستريت.

دينيس، لقد جئت من أجلك من بولندا.

ـ لافتة رفعت فى مدرجات ملعب شيكاجو بولز فى مركز يونايتد سنتر موجهة إلى دينيس رودمان.
11 أبريل، 1998

إننى ممن يعطون تذكرة لحضور جميع مباريات الموسم لفريق واشنطن ويزاردز لكرة السلة التابع للاتحاد القومى لكرة السلة (NBA). وكان صيف عام 1996 من الأوقات الكئيبة لكل مشجعى فريق ويزاردز .كان چوان هوارد نجم نجوم فريق ويزاردز، حر فى الانضمام إلى أى فريق فى ذلك الصيف، وكان نادى ميامى هيت العامرة خزائنه بالأموال يحاول استمالته بتقديم عرض يقرب من 120 مليون دولار على مدى سبع سنوات. وكان نادى ويزاردز يعرض عليه مبدئياً ما بين 75 و80 مليون دولار «فقط». وفى ذروة المفاوضات على عقد هوارد تقابلت مصادفة مع المعلق السياسى فى معهد

أمريكان إنتربرايز، نورمان أورنشتاين، وهو أيضاً من مشجعى نادى ويزاردز، وكنا نعبر عن أسفنا على ما يبدو أنه سيحدث لا محالة من أن يفقد نادى ويزاردز لاعبه هوارد لصالح نادى ميامى.

قال أورنشتاين أثناء حديثنا فى هذا الصدد: «أتعلم أن السبب فى ذلك كله هو اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة (نافتا NAFTA)».

ضحكنا معاً، لأن كلانا يعلم أن ما قاله أورنشتاين فيه كثير من الحقيقة. ببساطة، العولمة تحدث نوعاً من السوق العالمية الموحدة الأكثر انفتاحاً لكثير من السلع والخدمات. والنتيجة، أنه عندما تلتحم دولة ما بهذا النظام، فإن أولئك الذين يتمتعون بمهارات أو مواهب خاصة لبيع سلعهم أو خدماتهم فى تلك السوق العالمية الموحدة يستطيعون تحقيق أرباح حقيقية، لأنهم يستطيعون البيع فى سوق بحجم العالم أجمع. وقد كان من حسن طالع چوان هوارد أن التحسن الذى حدث فى مهاراته لرميات القفز العالى للكرة واستعادتها تزامن مع سقوط سور برلين، واتفاقية نافتا، والاتحاد النقدى الأوروبى، والجات، وانهيار الشيوعية، كما تزامن أيضاً مع غير ذلك من قوى السوق البازغة التى مكنت الاتحاد القومى لكرة السلة من أن يجعل منها رياضية عالمية ومكنت المشجعين من موسكو إلى المكسيك إلى ميامى من المساعدة فى دفع مرتب هوارد. لقد تمكن الاتحاد القومى لكرة السلة فى عام 1998 من بيع ما قيمته 500 مليون دولار من كرات السلة واللوحات التى تعلق عليها السلة، والتى ـ شيرت، وملابس الفريق، وأغطية الرأس التى حصل الاتحاد القومى لكرة السلة على حق تسويقها خارج الولايات المتحدة. ناهيك عن ملايين الدولارات الأخرى من حقوق مشاهدتها بالقمر الصناعى والكابل.

حقاً، لقد بدأت اليوم كرة السلة، التى يرعاها الاتحاد القومى لكرة السلة، تنافس كرة القدم باعتبارها الأكثر شعبية فى العالم. فإلى أى مدى وصلت شعبيتها

العالمية؟ تعرفون بالطبع عرائس ماتروشكا تلك التى يبيعونها فى روسيا ـ وهى عرائس خشبية كل واحدة منها داخل الأخرى الأكبر منها. حسناً، عندما زرت موسكو فى عام 1989 كانت أكثر عرائس ماتروشكا مبيعاً هى تلك التى تمثل مختلف القادة السوفيت وآخر القياصرة. وكنت تستطيع الحصول على لينين بداخل ستالين بداخل خروتشوف بداخل بريجنيف بداخل جورباتشوف. ولكن عندما زرت موسكو لتغطية انتخابات الرئاسة الروسية فى عام 1996، وجدت أن أكثر عرائس ماتروشكا مبيعاً خارج أسوار الكرملين عبارة عن عرائس على شكل اللاعبين دينيس رودمان بداخل سكوتى بيبين بداخل تونى كوكوتش بداخل لوك لونجلى بداخل ستيف كير بداخل مايكل جودران! أنت لست من مشجعى البولز؟ ليست مشكلة. لقد كان البائعون فى شوارع موسكو يبيعون فى ذلك العام جميع فرق الاتحاد القومى لكرة السلة الأمريكى فى مجموعات من عرائس ماتروشكا..

غير أنه إذا كانت العولمة يمكن أن تفسر حسن طالع هوارد، فإنها تساعد أيضاً فى تفسير واحد من أكثر المنتجات الفرعية خطورة للالتحام بنظام العولمة ـ ذلك أنه حدث اتساع ملحوظ فى الفجوة فى الدخل بين من يملكون ومن لا يملكون داخل الدول الصناعية إبان فترة الثمانينيات والتسعينيات عندما أخذت العولمة تحل محل الحرب الباردة، بعد بضع عشرات من السنين ظلت فيها هذه الفجوة مستقرة نسبياً.

سوف يقول لك الاقتصاديون إن هناك أسباباً كثيرة وراء الفجوة فى الدخل الآخذة فى الاتساع، يتصل معظمها بالعولمة. ومن بين هذه الأسباب الانتقالات السكانية (الديموجرافية) من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، والتغييرات التكنولوجية السريعة التى تجزل العطاء للعاملين فى مجال المعرفة أكثر من غيرهم الأقل مهارة، وتدهور الاتحادات العمالية، وارتفاع معدل الهجرة إلى الدول المتقدمة التى تؤدى إلى انخفاض أجور بعض الأعمال، والتوسع فى التجارة الخارجية.

وينبغى أن تؤخذ كل هذه العوامل فى الحسبان عند محاولة تفسير الفجوة الآخذة فى الاتساع بين من يملكون ومن لا يملكون، ولكننى أودّ، من أجل الهدف الذى أرمى إليه من هذا الفصل، أن أبحث عن العامل الذى ربما يكون أهمها جميعاً، وكان بلا شك هو أكثرها وضوحاً لى أثناء أسفارى. تلك هى ظاهرة «الفائز يحصد كل الأرباح» ـ التى تشير إلى أن الفائزين فى أى مجال اليوم يمكن حقيقة أن يحصدوا كل الأرباح لأنهم يستطيعون البيع فى هذه السوق العالمية الهائلة، فى حين يجد أولئك الأقل موهبة منهم فقط، أو الذين يفتقرون تماماً إلى المهارة، أنهم مقيدون بالبيع فقط فى سوقهم المحلية، ومن ثم تميل أرباحهم إلى أن تكون أقل كثيراً. لقد أشارت صحيفة ***يو إس إيه تودای*** إلى أن العرض الأول الذى قدمه نادى ميامى هيت لكى يحصل هوارد على 98 مليون دولار على مدى سبع سنوات يمكن أن يوازى مرتب مدرس مدرسة إعدادية (30 ألف دولار فى السنة) لمدة 3,267 عاماً.

يشير الاقتصاديان روبرت هـ. فرانك وفيليب ج. كوك فى كتابهما العظيم، ***مجتمع الفائز يحصد كل الأرباح*** *The Winner-Take-All Society*، إلى أن العولمة «لعبت دوراً مهماً فى اتساع عدم المساواة» بأن أوجدت سوقاً عالمية يحصل فيها الفائز على كل الأرباح. ويشيران إلى أن سوقاً عالمية موحدة لكثير من الصناعات والمهن قد ظهرت إلى الوجود مع انخفاض الحواجز والتعريفات الجمركية أو إزالتها تماماً فى أنحاء الأرض، وانخفاض أسعار السفر، وإزالة كثير من ضوابط الأسواق الداخلية، وانتشار المعلومات بلا قيود عبر حدود الدول. فالبائع الرحالة الذى اعتاد أن يكون عمله مقصوراً على منطقة من خمس ولايات يستطيع الآن استخدام الفاكس وتليفونات الأقمار الصناعية والإنترنت لكى يجلب زبائن له على مستوى الدولة أو المستوى العالمى. والطبيب الذى كان عمله مقصوراً على مستشفى واحد يستطيع الآن أن يشخص وينصح بالعلاج لمرضى عن طريق شبكات إرسال البيانات التى تمتد فى أنحاء

العالم. والمغنى الذى اعتاد أن يقتصر مستمعوه على بلاده فقط يستطيع الآن استخدام تكنولوجيا القرص المدمج (CD) ونظم الكابلات الممتدة حول العالم التى تحصل على اشتراكات للمشاهدة، ليس فقط من أجل الوصول إلى مستمعين عالميين مثلما فعل فريق البيتلز، وإنما أيضاً لتحقيق أرباح هائلة بطرق عديدة من وراء ذلك. وفى الوقت نفسه، يرى فرانك وكوك أن إزالة القواعد الرسمية وغير الرسمية التى كانت تحد من عرض أسعار تنافسية للأفضل فى أى صناعة ـ مثل قواعد شرط التحفظ فى عقود الاحتراف الرياضية التى تحد من قدرة اللاعب على عرض نفسه لمن يتقدم بأعلى سعر، أو القواعد غير الرسمية فى الصناعة التى كانت تفرض على الشركات أن ترقى إلى الدرجات التنفيذية من بين العاملين لديها بدلاً من أن تجوب العالم بحثاً عن الأفضل والأذكى ـ قد أسهمت أيضاً فى إيجاد سوق مفتوحة وعالمية للمزاد. (ويمكن أن يستفيد المستهلكون أيضاً من ذلك فإذا كنت تشكو من مرض نادر، فسوف تكون ممتناً أن تستطيع استشارة أفضل المتخصصين فى أى مكان فى العالم عبر الإنترنت، وإذا كنت من حملة الأسهم فى إحدى شركات فورتشن *500* الهابطة، فسوف يسرك أنها تستطيع استمالة أفضل مسئول تنفيذى حر من أبعد مكان فى العالم، أستراليا مثلاً، ولن تشعر أنك مضطر لمساندة أحد الأغبياء من داخل الشركة).

إذا وضعت هذه العوامل جنباً إلى جنب، فسوف ينتهى بك الأمر إلى وضع تمتد فيه السوق المحتملة الآن من أحد طرفى المعمورة إلى طرفها الآخر، وذلك بالنسبة لأى سلعة أو خدمة، لأى مطرب أو مؤلف أغان، لأى كاتب أو ممثل، لأى طبيب أو محام، لأى رياضى أو أكاديمى. ذلك الانفتاح وحرية الحركة اللذان لم يسبق لهما مثيل يمكنان الشركات والصناعات والمهنيين ويشجعانهم، بل ويطالبانهم بمحاولة تغطية هذه السوق باتساع العالم أجمع ـ وإلا فإن هناك آخر سيفعل ذلك. وعندما يبرز فائز من بين هؤلاء اللاعبين ـ مثل «شركة المحاسبة»، «الطبيب»، «الممثل»،

«المحامى»، «المطرب»، «خبير المبيعات»، «لاعب كرة السلة»، « الرجل»، «المرأة» فى أى مجال معين، فلن يفوز هذا الشخص بالولايات المتحدة أو أوروبا فقط، ولا باليابان أو الصين فقط. بل سيكون بوسعه جنى أرباح وفوائد حقوق ملكية هائلة من كل مكان فى العالم على الفور. إن أفضل تعبير عن ذلك جاء فى شعار الإعلان عن شركة فورد موتورز. «فورد. تفوز بالعالم كله».

يقول فرانك وكوك فى كتابهما: «فى هذه القرية العالمية، يستطيع لاعبو القمة ـ أى أولئك الذين يستطيعون تقديم أفضل منتج ـ تحقيق أرباح هائلة. لنضرب مثالاً، بشركة آكمى راديالز، نفترض أنها شركة لإنتاج الإطارات فى مدينة آكرون بولاية أوهايو. فإذا كانت آكمى هى الأفضل، فى شمالى أوهايو مثلاً، فإنها كانت تضمن حجم أعمال لا بأس به. غير أن المستهلكين الأكثر وعياً هذه الأيام تزداد مشترياتهم من الإطارات من بضع شركات قليلة لصنع أفضل الإطارات فى العالم أجمع. فإذا كانت شركة آكمى واحدة من الأفضل فإنها سوف تفوز وسوف تقفز أرباحها إلى عنان السماء، وإلا فسوف يكون مستقبلها مظلماً على الأرجح».

يشير فرانك وكوك فى هذا الصدد إلى أنه فى حين يستطيع الفائزون تحقيق نجاح مذهل فى هذه السوق العالمية فإن من يقلون مهارة عنهم بدرجة قد لا تذكر سيكون نجاحهم أقل كثيراً، أما من لا يمتلكون سوى القليل من المهارات أو الذين يفتقرون إليها تماماً، فسوف يكون أداؤهم ضعيفاً. لذلك تزداد الفجوة بين المركز الأول والمركز الثانى اتساعاً، ويصبح من الصعوبة تخطى الفجوة بين المركز الأول والمركز الأخير. وبطبيعة الحال، يندر أن يكون هناك فائز واحد فى كثير من المجالات، ولكن أولئك الموجودين بالقرب من القمة يحصلون على نصيب غير متكافىء مع الآخرين. وكلما تعولمت هذه الأسواق المختلفة وأصبحت أسواق «الفائز يحصد كل الأرباح» اتسع عدم التكافؤ داخل الدول، ومن ثم، بين الدول بعضها وبعض.

لقد أصبح عدم التكافؤ هذا من بين أكثر المنتجات الفرعية الاجتماعية إثارة للقلق فى هذا النظام. يشير تقرير لمجلة ***ناشيونال چورنال***، إلى أن دخول أفقر خُمس من الأسر العاملة فى أمريكا انخفضت بنسبة 21 فى المائة فى الفترة ما بين عامى1979 و1995 ، معدلة من أجل التضخم، فى حين قفزت دخول أغنى خُمْس من الأسر العاملة بنسبة 30 فى المائة فى تلك الفترة. وفى 30 مايو 1998، ذكرت صحيفة ***الإيكونوميست*** أن أمريكا بها 170 مليارديراً، فى حين كان عددهم 13 فقط فى عام 1982. وأضافت ***الإيكونوميست***، «إن الأداء الاقتصادى يحقق تقدماً الآن بحيث يفوز الجميع. ولكن عدم التكافؤ ازداد زيادة حادة على مدى الثلاثين عاماً الماضية، ولم يكن ذلك شيئاً غير ملحوظ. ففى رسوم الكارتون الصحفية، تحول بيل جيتس من بطل الألعاب إلى محتكر متنمر على من هم أضعف منه ـ تماماً على شاكلة روكفللر. وفيلم ***تيتانيك*** الذى حطم الدنيا، قدم وجهة نظر تقترب من الماركسية للأحداث، وكان ابتهاج المشاهدين الأمريكيين بغرق واحد أو اثنين من أغنى ركاب السفينة شيئاً يبعث القشعريرة». يقول صدر الدين أغاخان رئيس مؤسسة بيلليريف التى ترصد آثار العولمة فى تقرير له إن ثروة بيل جيتس وصلت فى مرحلة ما إلى ما يوازى إجمالى دخل 106 ملايين نسمة من أفقر الأمريكيين.

هناك الكثير من الأمثلة الأخرى لتأثير العولمة فى الفجوات فى الدخول والآثار الاجتماعية المترتبة على ذلك. غير أنك تستطيع، حسب ما أشرت آنفاً ـ أن تعرف كل ما تريد معرفته فى هذا الصدد، بإجراء مجرد دراسة لمجموعة واحدة من الناس ـ مثل الاتحاد القومى لكرة السلة، ولا سيما الأرقام الخاصة بفريق الأبطال العالمى شيكاجو بولز لعام 1997-98.

يعتبر لاعبو وأصحاب الاتحاد القومى لكرة السلة من بين أعظم المنتفعين من نظام العولمة فى يومنا هذا ـ وهو نظام لم يستطع أحد أن يفهمه، أو أن يفهم كيف يستغله أفضل من ديفيد ستيرن مفوض الاتحاد القومى لكرة السلة. وفى هذا قال لى ستيرن موضحاً فى لقاء صحفى أجريته معه، إنه بفضل ديموقراطية التكنولوجيا التى سادت أنحاء العالم الشيوعى السابق، وجد الاتحاد القومى لكرة السلة نفسه فجأة أمام «منافذ متعددة يستطيع بها إذاعة مبارياته ـ الكابل، وأطباق الأقمار الصناعية، والإنترنت، وبصريات الألياف، والتليفزيون التقليدى ـ وذلك فى عدد لا يحصى من الدول». وقال إن الاتحاد القومى لكرة السلة مرتبط اليوم بعلاقات مع أكثر من 90 جهة إذاعية حول العالم، تأتى بمباريات الاتحاد القومى لكرة السلة إلى أكثر من 190 دولة وبواحد وأربعين لغة مختلفة. حتى الصين أصبحت تذيع مباراة أسبوعياً صباح كل سبت. وبفضل ديموقراطية التمويل، وانهيار الشيوعية، وزوال الكثير من حواجز السفر والتجارة، أصبحت هناك سوق هائلة تمتد عبر الدول لكل أنواع السلع الاستهلاكية. وتتلهف الشركات التى ترغب فى البيع فى هذه السوق على أن يكون منتجها له صلة بأحد الرموز العالمية التى يمكن تسويقها عبر الكثير من الحدود والمناطق مختلفة التوقيت فى آن واحد. وأصبح شعار الاتحاد القومى لكرة السلة ولاعبوه الرمز العالمى الذى يمكن أن يجمع ما بين تلك الماركات العالمية ـ معجون الأسنان أو الأحذية أو مزيل للعرق ـ وتمنحها مصداقية فورية مع المستهلكين من بوينيس أيريس إلى بيجنج (بكين). وبفضل ديموقراطية المعلومات ـ وبزوغ نجم مايكل جوردان ـ يمكن أن يظهر أحد المتحدثين باسم سلعة ما ليحظى بالإعجاب من أحد طرفى السوق العالمية إلى طرفها الآخر، على الرغم من الخلافات بين الدول.

وضح لى ستيرن قائلاً: «وهكذا تجد أن شركة سبرايت تذيع إعلانين فى الدنمارك وبولندا فى آن واحد وكلاهما يستخدمان شعار الاتحاد القومى لكرة السلة،

الذى يعطى لمنتجهما جواز المرور الذى يمكن أن يكون مفهوماً فى أى سوق». ولكى يعزز ذلك أضاف قائلاً: «لقد أصبح للاتحاد القومى لكرة السلة مكاتب تسويق تليفزيونى فى باريس، وبرشلونة، ولندن، وتايوان، وطوكيو، وهونج كونج، وملبورن، وتورنتو، ونيوجيرسى، وميامى، وفى مكسيكو سيتى للتسويق فى أمريكا اللاتينية. ونحن نلعب الآن بانتظام ثمانى مباريات كل موسم فى طوكيو ومبارتين فى مكسيكو سيتى».

فى عام 1990، أذيعت مباريات الاتحاد القومى لكرة السلة فى 200 مليون منزل فى 77 دولة. وبحلول عام 1998، ارتفع الرقم إلى 600 مليون منزل فى 190 دولة. وهناك أكثر من 35 فى المائة من المشجعين المتصلين بالموقع الرسمى للاتحاد القومى لكرة السلة على الشبكة، www.nba.com، يعيشون خارج الولايات المتحدة. ويدخل الكثيرون من مستخدمى الكمبيوتر فى 50 دولة بانتظام على موقع www.nba.com. ومنذ عام 1994 تضاعف عدد اللاعبين الدوليين الذين التحقوا بالاتحاد القومى لكرة السلة أربع مرات.

وقد أجريت لقاءً صحفياً مع اللاعب ستيف كير المتخصص فى الرميات الثلاثية، الذى لعب مع مايكل جوردان لعدة سنوات فى فريق شيكاجو بولز، حتى أتمكن من استيضاح هذه النقطة أكثر. بدأ كير عمله الرياضى فى الاتحاد القومى لكرة السلة قبل سقوط سور برلين مباشرة، عندما كان الاحتراف فى كرة السلة رياضة أمريكية بالدرجة الأولى، وبلغ ذروة احترافه اليوم، بعد أن أصبحت رياضة دولية. قال لى كير: «لقد ذهبت إلى طوكيو منذ عامين للمشاركة فى معسكر لكرة السلة هناك يديره سين إليوت (أحد نجوم الاتحاد القومى لكرة السلة أيضاً)، ولم أستطع تصديق أن يعرفنى هذا العدد الكبير من الناس فى أنحاء طوكيو. ففى صبيحة أحد الأيام استيقظت فى الساعة الخامسة صباحاً للذهاب إلى سوق السمك فى طوكيو لمراقبتهم

وهم يبيعون الأسماك بالمزاد. كان الأمر بالنسبة لى أشبه بالمزارات السياحية. فعندما تدخل إلى السوق تجد أسماك التونة الضخمة ترقد هنا وهناك تلك التى يبيعونها بسعر 50 ألف دولار للسمكة. كانت الأسماك موضوعة فوق تلك المنصات النقالة المنتشرة فى أرجاء المكان. وكنت أسير أنا هنا وهناك أشاهد أسماك التونة هذه، وكل هؤلاء الصيادين اليابانيين يتحدثون اليابانية ويزايدون على الأسماك. ولكن فى كل مكان كنت أذهب إليه كان هولاء الصيادون (اليابانيون) الصيادون! ـ يأتون إلىّ ويقولون: 'آه ه، ستيف كير ـ شيكاجو بولز'. كان ذلك فى الساعة الخامسة صباحاً فى سوق السمك بطوكيو!»

وعندما لعب فريق شيكاجو بولز فى مسابقة استعراضية قبل الموسم فى باريس فى أكتوبر 1997 (كانت المسابقة تسمى بطولة ماكدونالدز ـ هل يمكن أن يكون شيئاً غير ذلك؟) صدرت تصريحات بحضور المسابقة لنحو 1,000 صحفى ومصور ـ وهو عدد يفوق عدد من يحضرون منهم نهائيات مسابقات الاتحاد القومى لكرة السلة. ويذكر كير: «شعرت بشىء من الاستغراب وأنا أمشى فى شوارع باريس والجميع يعرفون من أنا».

كان صديقى ألين آلتر مراسل الشئون الخارجية بشبكة سى بى إس CBS الإخبارية يحاول الحصول على تأشيرات دخول لفريق من سى بى إس إلى كوريا الشمالية فى شتاء عام 1997. فقام بما يمكن أن يقوم به أى مراسل جيد ـ إذ أخذ فى التقرب من اثنين من كبار الدبلوماسيين الكوريين الجنوبيين فى الأمم المتحدة كانا مسئولين عن إصدار التأشيرات. ذكر الدبلوماسيان عرضاً أثناء العشاء فى إحدى الأمسيات أنهما مهتمان كثيراً بمباريات الاتحاد القومى لكرة السلة، ومن ثم فقد أرسل لهما آلتر شريط فيديو لمباراة النهائى للاتحاد لعام 1997: بين شيكاجو بولز ويوتاه چاز. وفى صباح اليوم التالى، أرسل له الكوريان الشماليان اللذان لم يهتما من قبل

قط بالرد على أى مكالمات تليفونية أو رسائل فاكس، بمحض اختيارهما، فاكساً يشكرانه فيه على الشريط ويبلغانه أن «التأشيرات فى طريقها بالفعل إلى بيونج يانج بالحقيبة الدبلوماسية». وبعد بضعة أسابيع قليلة جاء وفد كورى شمالى لزيارة نيويورك وذكر أحد الدبلوماسيين الكوريين الشماليين لآلتر أنهم، «معجبون جداً بقادة الهتافات ـ إننا نشعر بالانبهار تجاههم فى بلادنا». بلا شك أن «الرئيس العزيز» لكوريا الشمالية، كيم يونج إيل، الذى اشتهر عنه بالفعل إعجابه بجودزيللا وبالساحر ديفيد كوبرفيلد قد أصبح يتذوق هتافات المشجعين أثناء مشاهدته للشرائط السينمائية لأهم أحداث الاتحاد القومى لكرة السلة.

ناحوم بارينا كاتب العمود السياسى البارز فى صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، أحد المشجعين لمباريات الاتحاد القومى لكرة السلة المتحمسين، وهو يستطيع بسهولة إشباع نهمه لهذه المباريات؛ لأن الكثير منها يذاع الآن على الهواء مباشرة فى التليفزيون الإسرائيلى على الرغم من فرق التوقيت الذى يصل إلى سبع ساعات. قال لى بارينا إنه كان فى زيارة لوالدته المقيمة بإحدى دور المسنين فى اليوم الذى أقيمت فيه المباراة السادسة لنهائيات الاتحاد القومى لكرة السلة لعام 1997 بين شيكاجو بولز ويوتاه چاز. وأثناء دردشته مع والدته حوّل التليفزيون الموجود فى حجرتها إلى المباراة بين البولز والچاز، بحيث يستطيع زيارتها ومشاهدة المباراة فى آن واحد. وعندما لاحظت والدة ناحوم المسنة أثناء سير المباراة أن ابنها مندمج إلى حد بعيد مع الأهداف التى تحرز أثناء المباراة، سألت ناحوم: «أى الفريقين الفريق الإسرائيلى؟» إذ لم يخطر على بال مسز بارينا أن يكون ابنها متحمساً إلى هذا الحد فى مشاهدة مباراة لكرة السلة لا يشارك فيها على الأقل فريق إسرائيلى واحد.

بيد أن عولمة مباريات الاتحاد القومى لكرة السلة له عواقبه الاجتماعية. ما عليك إلا أن تنظر إلى دكة فريق شيكاجو بولز. فعند أحد طرفى هذه الدكة يجلس مايكل

جوردان. لقد قدرت مجلة **فوربس** دخل جوردان من التوقيع على المنتجات، وهى مصادر غير كرة السلة، بمبلغ 47 مليون دولار فى عام 1997 وبلغ مرتبه فى ذلك العام 31.3 مليون دولار، وبذلك يصل إجمالى دخله إلى نحو 80 مليون دولار. وفى عام 1998، قبل وقت قصير من اعتزال جوردان، قدمت مجلة **فورتشن** تقديرات لتأثير جوردان فى الاقتصاد الأمريكى منذ انضمامه إلى الاتحاد القومى لكرة السلة فى عام 1984 بأنه بلغ «10 مليارات دولار» ـ إذا أخذنا فى الاعتبار أنه كان السبب وراء ارتفاع مبيعات الاتحاد القومى لكرة السلة من التذاكر، وحقوق إذاعة المباريات فى الخارج، وارتفاع أسعار البث التليفزيونى التى كان هو السبب فيها، ومن بيع أحذية ومنتجات نايك وغيرها من المنتجات التى كان جوردان يوقع عليها. لقد أشارت مجلة **سبورتينج نيوز** إلى أن «قيمة جوردان تأكدت لدى عودته إلى الاتحاد القومى لكرة السلة فى مارس 1995، بعد فترة استغرقت ثمانية عشر شهراً لعب فى أثنائها كرة البيسبول. فقد قفزت قيمة أسهم شركاته الخمس التى يوقع على منتجاتها ـ وهى ماكدونالدز، وسارا لى، ونايك، وجنرال ميلز، وكويكر أوتس ـ فى البورصة إلى 3.8 مليار دولار فى غضون أسبوعين». وكان من الأنسب لشركة أبر ديك Upper Deck Company التى تصنع بطاقات كرة السلة وكرة البيسبول أن تنشر إعلاناً فى مجلة **سبورتينج نيوز** يظهر فيه جوردان وهو يمسك بالعالم بين يديه، غير أن حجم العالم كان فقط فى حجم كرة السلة. وإلى جانب صورة جوردان وهو يمسك بيديه الكرة الأرضية كتبت عبارة «هل هذا هو حجمها الحقيقى؟»

إن مايكل جوردان بحق هو الفائز الذى يحصد كل شىء. غير أنه يوجد اثنا عشر لاعباً آخرون فى فريق الاتحاد القومى لكرة السلة. وكان يجلس على هذه الدكة مع جوردان فى آخر موسم له ـ يجلس فى الواقع على بعد أحد عشر مكاناً منه ـ أحد اللاعبين ممن يتميزون بمهارات فى التصويب تقل فى فاعليتها بدرجة طفيفة عنه،

ورمية القفز لديه أقل دقة ولكن بدرجة طفيفة، وتصوياته فى الرمية الحرة أقل توافقاً ولكن بدرجة طفيفة، ومهاراته الدفاعية أقل قوة بدرجة طفيفة. ومع ذلك فهو لاعب كرة سلة عظيم. فقبل كل شيء هو من لاعبى الاتحاد القومى لكرة السلة، وهو من أبطال فريق شيكاجو بولز. اسمه جو كلاين. إنه يجلس على بعد أحد عشر مكاناً من المقعد الذى يجلس عليه جوردان، وكان مرتبه فى عام 1997 أدنى مرتب يدفعه الاتحاد القومى لكرة السلة وهو 272,250 دولاراً سنوياً ـ أى أقل من إجمالى مرتب جوردان بنحو 79,727,750 دولاراً. اللعبة نفسها، والاتحاد نفسه، والفريق نفسه، والدكة نفسها. وأحد أسباب تلك الفجوة الضخمة هو أنه فى حين كانت لمايكل جوردان سوق عالمية لخدماته وأوتوجرافاته كانت سوق خدمات جوكلاين وأتوجرافاته لا تتجاوز المركز التجارى فى شيكاجو.

بعد المباراة بين شيكاجو بولز وأورلاندو ماچيك فى 11 أبريل عام 1998، ذهبت إلى غرفة خلع ملابس لاعبى بولز للحديث مع جوكلاين وزملائه. كانت حقائق السوق العالمية بارزة للعيان على نحو صارخ هناك. كان هناك نحو ثلاثين مراسلاً، صحفياً وتليفزيونياً على السواء، يقفون فى القاعة خارج حجرة خلع الملابس قبل فتحها بعد انتهاء البولز من المباراة. وبعد فتح الحجرة فى النهاية انحشر هؤلاء المراسلون جميعاً متزاحمين على صورة نصف دائرة حول خزانة ملابس مايكل جوردان. وكان ضمن الجمع فريق تليفزيونى يابانى، يتحدثون باليابانية مع بعضهم بعض. وكانت تقودهم مراسلة تليفزيونية يابانية شابة ظل وجهها تعلوه حمرة الخجل كلما خرج واحد من أعضاء البولز العمالقة الذين تصل أطوالهم إلى نحو سبعة أقدام من الحمام وهم يلفون وسطهم بأصغر المناشف. إن المرء لا يرى ذلك فى اليابان كل يوم!

ولكن تخيل هذا المنظر: هناك غرفة لخلع الملابس. وهناك اثنتا عشرة خزانة لخلع الملابس توجد أمامها المقاعد الخشبية. ومع ذلك تجمع أولئك المراسلون الثلاثون فى

نصف دائرة حول الخزانة الخالية للاعب واحد ـ مايكل جوردان. وكانت ميكروفونات المراسلين وكاميراتهم كلها موجهة إلى مقعده الخالى، وجميعهم فى انتظار لحظة وصوله، وجميعهم يأملون فى الحصول منه على تصريح لنقله إلى أنحاء العالم. وذلك فى حين يقف الأحد عشر لاعباً الآخرون يرتدون ملابسهم أمام خزانات ملابسهم، لا يجذبون أى اهتمام تقريباً. (يجتذب سكوتى پيپين فى النهاية اهتمام بضعة مراسلين عندما يظهر).

سرت متمهلاً، من قبيل حب الاستطلاع، نحو جوكلاين، وقدمت له نفسى وسألته عما إذا كان يشعر بالانزعاج إزاء اتساع الفجوة فى الدخول بين لاعبين مثله ومثل جوردان. أشار كلاين إلى أنه يفهم تماماً مبدأ الفائز يحصد كل شىء. وقال فى هذا الصدد: «لقد ظلت المرتبات ترتفع فى هذا الاتحاد بالنسبة للجميع، ولكن النجوم السوپر حققوا قفزة كبيرة. وبالنسبة لى، فقد اخترت أن ألعب مع هذا الفريق وبالحد الأدنى من المرتبات. لقد كان ذلك هو اختيارى، ومن ثم فلا أشكو منه».

فى المجتمع، مثلما فى الاتحاد القومى لكرة السلة، حدثت آثار اجتماعية حقيقية من جراء هذه الفجوات فى الدخل. وقد يصبح الأمر قضية خطيرة فى الفرق الرياضية التى لا يحصل فيها اللاعبون ذوو الرواتب المنخفضة على التعويض النفسى للعب مع لاعب مثل مايكل جوردان أو لايفوزون بأطواق البطولة. لأنه كلما زاد ما يحصل عليه النجوم السوبر، قل ما تبقى للدفع للآخرين، وكان ذلك من القضايا الكبرى فى شروط عقود الاتحاد القومى لكرة السلة فى موسم عام 99-1998. ففى عام 1998 حصل عدد كبير من لاعبى الاتحاد القومى لكرة السلة (25 فى المائة منهم) على أقل حد أدنى فى تاريخ الاتحاد القومى لكرة السلة. وقد نشرت مجلة ***بيترسين برو باسكتبول*** فى هذا الشأن: «لقد بدأ الاتحاد القومى لكرة السلة يصبح انعكاساً للمجتمع الأمريكى بأسره: الأثرياء يزدادون ثراء، وهناك عدد كبير (نسبياً) من الفقراء، ويبدو أن الطبقة الوسطى

تتعرض لخطر الاختفاء. لقد صرح دون كرونسون وكيل اللاعبين بالاتحاد القومى لكرة السلة بقوله، 'فى العام الماضى (97-1996) حصل نحو ثلث لاعبى الاتحاد ـ 110لاعباً من مجموع 348 لاعباً ـ على الحد الأدنى من الأجور فى الاتحاد'. ويبدو من ماجريات الأمور أن هذا العدد سوف يرتفع فى هذا العام إلى نحو 150 لاعباً. ففيما بين القيود المفروضة على الحد الأعلى للأجور والحجم المذهل لأجور النجوم السوبر، لم يتبق شىء تقريباً لمن يحصلون على ما بين مليون إلى مليونى دولار، الذين هم عادة أفضل أربعة إلى سبعة لاعبين فى القائمة. ولذلك سيكون لديك ما يكفى لثلاثة على القمة وخمسة فى القاع، ممن يسعدون لمجرد انضمامهم للاتحاد والتهام الفول السودانى. غير أن لديك لاعبين من الرابع إلى السابع هم الأعضاء الأساسيين الذين يتعين عليك إسعادهم ـ وهم بالفعل لن يسعدوا من مجرد وجودهم فى الاتحاد، بأى صورة. فسوف يكون هناك الكثير من الغيرة والاستياء أكثر مما حدث من قبل بكثير. إذ إن وجود فجوة هائلة فى الأجور تعنى مشاكل خطيرة فى غرفة خلع الملابس فى كل وقت، وتلك هى الطبيعة البشرية. وبلا شك أنها أصبحت طبيعة لاعب كرة السلة المحترف فى هذه الأيام'. وكان أفضل مثال على الفجوة بين طبقات اللاعبين ما حدث فى الموسم الماضى مع لاعبى نادى هيوستون روكيتس، حيث حصل نجومه السوبر الثلاثة على مرتبات تزيد على 21 مليون دولار، ولا يوجد فى منطقة الطبقة الوسطى من قائمة الفريق سوى لاعبين اثنين فقط (كيفين ويليس وماريو إيلى)، ويوجد ما لا يقل عن ثمانية لاعبين آخرين ممن يحصلون على الحد الأدنى من الأجور. يعلق كرونسون على ذلك بقوله: 'مما سمعت أرى أن ذلك سوف يكون فريقاً غير سعيد'».

صرح ستيف كير الذى لعب لفريقين آخرين فى الاتحاد القومى لكرة السلة قبل أن يلعب لفريق البولز بقوله: «إنها مشكلة حقيقية. لقد أصبحت هناك أعداد كبيرة من اللاعبين ممن يحصلون على الحد الأدنى من مرتبات الاتحاد القومى لكرة

السلة وهم يشاركون بالفعل فى اللعب، فى حين هناك لاعبون سابقون يحصل الواحد منهم على 4 ملايين دولار ويجلسون على دكة الاحتياطى. ويستحيل والوضع كذلك ألا يشعر بالتذمر هؤلاء المشاركون فى اللعب الذين يحصلون على الحد الأدنى، وألا يكون هناك شعور بالذنب بين هؤلاء المشاركين السابقين الذين يحصلون على4 ملايين دولار وهم جالسين على دكة الاحتياطى». وعندما سئل كير عما إذا كان قد شعر بالاستياء إزاء هذا الفرق فى المرتبات بينه وبين جوردان، أوضح أنه يفهم العولمة ويعرف مكانه على هذا الكوكب، قائلاً: «كلا لم أشعر بذلك حقيقة. فأنا أفكر فى أولئك الآلاف من اللاعبين الجياد الذين لا يجدون لهم مكاناً فى الاتحاد. وأرى كم أنا محظوظ لأننى أحد أعضائه».

تلك الفجوة الموجودة فى قوائم الاتحاد القومى لكرة السلة تنعكس أيضاً فى الفجوة المتزايدة فى مقصورات مالكى الاتحاد. لقد جرت العادة على أن يكون ملاك الاتحاد القومى لكرة السلة من رجال الأعمال فى المجتمع المحلى. واليوم، أصبح ملاك الاتحاد القومى لكرة السلة من الشركات الكبرى التى تحقق الدخل العالمى اللازم لدفع المرتبات العالمية للرياضيين فى رياضة عالمية. من تظن يملك فريق نيويورك نيكس؟ إنه شركة نظم الكابلات التليفزيونية. Cablevision System Corporation. ومن تظن يملك نادى أطلانطا هوكس؟ إنه شركة تايم وورنر. ومن تظن يملك نادى پورتلاند تريل بليزرز؟ إنه پول آلان، أحد مؤسسى شركة مايكروسوفت. ومن تظن يملك نادى فيلادلفيا سيڤينتى سيكسرز ؟ إنه شركة كومكاست كابل. ومن تظن يملك نادى سياتل سوبرسونيكس؟ إنه اتحاد مجموعة الشركات الإعلامية إيكرلى جروب ومن تظن يملك نادى ميامى هيت؟ إنه ميكى آريسون صاحب شركة كارنيڤال للخطوط الملاحية. أما آبى پولين، مالك نوادى واشنطن ويزاردز، فهو واحد من القلة من رجال الأعمال من ملاك النوادى المحليين. وپولين هو أحد أعمدة المجتمع

فى واشنطن، وأحد رجال الخير والكرم هناك. وقد جمع بولين ثروته من تجارة العقارات فى واشنطن وكان عليه أن يعد اللاعب چوان هوارد بمرتب يوازى تقريباً كل ثروته لكى يوقع لناديه فقط لمدة سبع سنوات ويمنعه من الانضمام إلى فريق ميامى. ولكن ملاك الأندية من أمثال بولين، الذين هم جزء من مجتمعهم، أصبحوا الآن سلالة آخذة فى الانقراض، مما يؤدى إلى تقلص المجتمع بأسره.

ذكرت صحيفة ***نيويورك تايمز*** (10 يناير 1999) أنه، «نادراً ما يحدث أن يدخل تشارلس دولان رئيس شركة نظم الكابلات التليفزيونية، التى تمتلك نادى نيكس، إلى حجرة خلع الملابس فى ماديسون سكوير جاردن. أما فى فترة الستينيات والسبعينيات فقد كان الملاك يدعون اللاعبين لقضاء إجازاتهم معهم. حيث كانت الروح الأسرية تغلف العلاقات بين الملاك واللاعبين. والآن هناك من اللاعبين من لم يلتق قط مع ملاك فرقهم». حقاً، فعندما انتقل اللاعب المسّاك مايك بياتزا من نادى لوس أنجيليس دودجرز إلى نادى فلوريدا مارلينز ثم إلى نيويورك ميتس فى مايو 1998، اشتكى من أن ملاك نادى دودجرز كانوا مبتعدين كثيراً عن اللاعبين بحيث يصعب عليهم الاتصال بهم. من تظن يمتلك نادى دودجرز؟ إنه روبرت ميردوخ الأسترالى صاحب التكتلات التجارية، وهى شركات الإعلام الإخبارية التليفزيونية الذى وصفه بياتزا بأنه، «يتعذر الاتصال به، ومتباعد، ويشبه سحلية الساحر أوز».

وفى النهاية، تنعكس تلك الفجوة الموجودة على دكة اللاعبين وفى مقصورة ملاك الأندية أيضاً فى وجودة فجوة فى المواقف. قد لا يحمل مشجعو مايكل جوردان أى ضغينة إزاء ما يحصل عليه من مرتب، ولا سيما إذا ظل يحقق الفوز فى البطولات. ولكن الهوة المتسعة بين الفائزين والخاسرين فى الاقتصاد العالمى التى تظهرها مرتبات الرياضيين لها عواقبها الاجتماعية. لقد أصبح الأغنياء والفقراء يعيشون على نحو متزايد وجوداً منفصلاً، ويرسلون أولادهم إلى مدارس مختلفة، ويعيشون فى

أحياء مختلفة، ويتسوقون من متاجر مختلفة، ويشاهدون أحداثاً رياضية مختلفة ـ بل الأسوأ، أنهم لا يشاهدون هذه الأحداث على الإطلاق. لقد كان الذهاب إلى المباراة أشبه بشد الناس بعضهم إلى بعض. ولكن محبى الرياضة ستقل قدرتهم على مشاهدة المباريات أكثر وأكثر لأنه حتى يتسنى دفع هذه المرتبات الضخمة أصبحت أسعار التذاكر أكبر من طاقة الجميع سوى الأغنياء، وتم الفصل بين الطبقات فى المدرجات، حيث يجلس الفقراء الأجلاف الذين يطيقون دفع 75 دولاراً للتذكرة محشورين فى المدرجات المكشوفة يأكلون الفول السودانى، فى حين يجلس الأثرياء فى مقصوراتهم الفخمة الفسيحة ويتناولون غداءهم من فطائر الكابوريا غالية الثمن التى تقدمها لهم المضيفات. حتى اللاعبين أنفسهم، الذين ينحدر الكثيرون منهم من بيئات فقيرة يتحدثون عن الفجوة الاجتماعية بينهم وبين الجماهير الغنية البيضاء فى معظمها الذين يدفعون ثمن مشاهدتهم لهم. صرح أحد اللاعبين السود لصحيفة ***سبورتس إلاستريتد*** بقوله: «عندما تسقط مندفعاً فى المقصورة وراء إحدى الكرات، تتعثر فى التليفون الخلوى لأحد رجال البنوك الاستثمارية. وفى الوقت نفسه لا يستطيع صديقك الذى نشأت معه تحمل ثمن التذكرة. إن المرء يفكر كثيراً فى مثل هذه الأشياء». وقد اضطر نادى لوس أنجيليس ليكرز، حتى يستطيع دفع 121 مليون دولار للاعب شاكيل أونيل لعقد مدته سبع سنوات إلى رفع قيمة أرخص تذكرة من9.5 دولاراً للمباراة إلى 21 دولاراً، وإلى رفع أغلى تذكرة للمقاعد الجانبية من 500 دولار إلى 600 دولار فى المباراة الواحدة. يذكر مايكل جى. ساندل، المنظِّر السياسى بجامعة هارفارد، أن ملعب الكرة الذى كان دائماً شيئاً أساسياً فى العمل على تجانس المجتمع، «لم يعد، نتيجة لذلك، ذلك المكان العام الذى يشترك الجميع فى الانتماء إليه والذى يترابط فيه الناس من مختلف مدارج الحياة».

حقاً، لقد أصبحت الفجوة بين نجوم العالم الرياضيين ومشجعيهم أقرب إلى عالم الخيال. قال لى ستيف كير: «كنت أقرأ ذات مرة قصة عن الملاكم إيفاندر هوليفيلد الذى بنى منزلاً مساحته 56 ألف قدم مربع. وأنا واثق من أنه كان يعنى بذلك شيئاً طيباً، ولكن المقال نقل عنه قوله أنه كان يعتزم دعوة الأطفال المحرومين إلى جولة فى هذا المنزل حتى يتأكد لهم أنهم يستطيعون تحقيق ذلك بالعمل الشاق. يا إلهى، منزل مساحته 56 ألف قدم مربع! والطريقة الوحيدة التى يمكن أن تحقق بها ذلك هو أن تصبح بطل العالم فى الملاكمة للوزن الثقيل، ولا يوجد سوى شخص واحد يستطيع تحقيق ذلك. إن كل شىء يتركز حول ما الذى تستطيع شراءه. إننا نجد لاعبين يذهبون إلى المدارس ويقولون للأطفال، 'استمروا فى دراستكم حتى يمكنكم شراء كل هذه الأشياء التى تجدونها عندى'. ولست واثقاً من أن تلك هى الرسالة الصحيحة التى يجب إبلاغها لهم. بل يجب أن تكون الرسالة، استمروا فى دراستكم حتى يمكنكم أن تصنعوا ما تريدون صنعه فى الحياة».

عندما يتعذر علىّ استخدام تذاكرى لمباريات واشنطن ويزاردز فإننى أعطيها غالباً لأحد أصدقائى يعمل بواباً. وهو يشعر بالامتنان الشديد، وأنا أشعر بالحزن الشديد. إننى أشعر بهذا الحزن الشديد لأنه يشعر بالامتنان لأنه تيسر له القيام بشىء كنت أقوم به مع والدى عندما كنت صغيراً ـ فقد كنت أذهب إلى مباريات مينيابوليس ليكرز بلا تردد، عندما كان دخل أبى 13 ألف دولار سنوياً.

ثمة خطأ ما فى أن يكون هناك الآن ذلك العدد الكبير من الناس الذين حيل بينهم وبين هذه التجربة البسيطة. لقد تآكل المجتمع درجة أخرى، ولذلك فلن تدهش عندما تلتقط صحيفة ***واشنطن تايمز*** ليوم 12 نوفمبر 1997، لتقرأ فيها الخبر التالى: «قُتل اثنان من المارة فى فيلادلفيا بعد خلاف حول من الأفضل من حارسى المرمى، آلين إيفرسون من نادى فيلادلفيا سيفنتى سيكسرز أم جارى بيتون حارس مرمى سياتل

سوبر سونيكس. فقد تحولت الكلمات إلى طلقات رصاص بعد مباراة سيفنتى سيكسرز وسونيكس وقُتل ديريك واشنطن، 21 عاماً، وابن خالته چاميكا رايت، 22 عاماً، فى تبادل لإطلاق النار فى حى الإسكان الشعبى فى ساوثوارك بلازا».

أعلم أن هذا النوع من الاقتصاد ذى الطبقتين كان حقاً من أوجه عدة هو القاعدة فى كثير من مراحل التاريخ الأمريكى وأن صعود طبقة وسطى عريضة كان بالفعل ظاهرة من ظواهر منتصف القرن العشرين. فلم يكن ليتسنى لأبى قط أن يفهم معنى ألا يستطيع تحمل تكلفة الذهاب إلى مباراة لكرة السلة، ولكننى واثق من أن جدى كان ليتفهم ذلك. والمؤسف، أنه يبدو أن أحفادى سوف يتفهمون ذلك أيضاً.

لقد استخدمت مثال الاتحاد القومى لكرة السلة ليس لأننى أتعاطف مع اللاعبين الذين لا يحصلون إلا على 272,250 دولاراً فقط سنوياً، وإنما لأنه وسيلة سهلة لشرح الفجوات الآخذة فى الاتساع فى الدخول التى تعمل على إذكاء حدوث ردة ضد العولمة فى أنحاء العالم (وهو ما سوف أناقشه بالتفصيل فى الجزء التالى من هذا الكتاب). وتتضح هذه الفجوات فى الدخول بصفة خاصة خارج الولايات المتحدة حيث تأخذ الطبقات الوسطى فى النقصان وحيث قوانين مناهضة الاحتكار وغيرها من قوانين التوزيع العادل للدخل أقل صرامة. فعلى المدى الطويل قد تتحول هذه الفجوات فى الدخول إذا استمرت فى الاتساع إلى كعب أخيل العولمة (نقطة الضعف فيها). ويبدو لى أن هناك شيئاً غير مستقر كامن فى عالم أصبح مشدوداً إلى بعضه بعض بإحكام أكثر وأكثر عن طريق التكنولوجيا والأسواق ووسائل الاتصال، فى حين يتفسخ أكثر فأكثر اجتماعياً واقتصادياً.

تأمل الموضوع الإخبارى الذى تصادف أن قرأته فى وكالة أنباء رويترز: «بورت ـ أو ـ برينس، هاييتى (رويترز) ـ سوف تقيم هاييتى ـ أفقر دولة فى نصف الكرة الغربى،

خدمة للتليفون الخلوى للمرة الأولى فى نهاية شهر مايو 1998، حسبما صرح المسئولون فى الشركة المسئولة عن إقامة هذه الخدمة اليوم الجمعة. ولن يتحمل الاستفادة من هذه الخدمة سوى أقلية من الأسر الثرية والمستثمرين ورجال الأعمال الأجانب. ويبلغ دخل الفرد فى هاييتى 250 دولاراً سنوياً. وسوف يتكلف التليفون الخلوى 450 دولاراً بالإضافة إلى 100 دولار للاشتراك فى الخدمة لأول مرة، فضلاً عن رسوم قدرها 20 دولاراً فى الشهر مقابل هذه الخدمة». بعبارة أخرى، أن التليفون الخلوى مجرد أداة للاستخدام اليومى بالنسبة لقطاع صفوة العولمة من الشعب الهاييتى، أما بالنسبة لمعظم الهاييتيين الآخرين فيساوى مرتب عامين.

وذلك شيء لا يؤدى إلى الاستقرار، ولكن المؤسف أنه أيضاً شيء عادى. إذ حسبما يقول تقرير التنمية البشرية لمنظمة الأمم المتحدة فى عام 1998، أنه فى عام 1960 كان دخل العشرين فى المائة من سكان العالم الذين يعيشون فى أغنى الدول يعادل 30 ضعفاً من دخل العشرين فى المائة من أفقر سكان العالم. أما فى عام1995، فقد أصبح دخل هذه الـ20 فى المائة الأغنى 82 ضعف الأفقر. ففى البرازيل، على سبيل المثال، كان الخمسون فى المائة الأفقر من سكان البلاد يحصلون على 18 فى المائة من الدخل القومى فى عام 1960. أما فى عام 1995 فقد أصبح ما يحصلون عليه 11.6 فى المائة، فى حين أصبح أغنى 10 فى المائة من سكان البرازيل يحصلون على 63 فى المائة من الدخل القومى. وفى روسيا، أصبح أغنى 20 فى المائة من السكان يحصلون الآن على 11 ضعفاً لما يحصل عليه أفقر 20 فى المائة من الدخل القومى.

واليوم يستهلك أغنى خُمس من سكان العالم 58 فى المائة من إجمالى الطاقة، فى حين يستهلك أفقر خُمس أقل من 4 فى المائة. وأصبح لدى أغنى خُمس 74 فى المائة من جميع الخطوط التليفونية، وأفقر خُمس لديهم 1.5 فى المائة. ويوجد فى

الولايات المتحدة والسويد 600 خط تليفونى لكل 1,000 شخص، فى حين يوجد فى تشاد خط تليفونى واحد لكل 1,000 شخص. ويستهلك أغنى خمس 45 فى المائة من إجمالى حجم اللحوم والأسماك، فى حين يستهلك أفقر خمس أقل من 5 فى المائة. ويشير تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية إلى أنه، بفضل العولمة، أصبح الباحثون فى مجال السوق يحاولون بيع منتجاتهم إلى «الصفوة فى العالم»، و«الطبقة الوسطى فى العالم» و«الشباب تحت العشرين فى العالم»، لأنه أيا كان المكان الذى يعيشون فيه فإنهم الآن يتبعون الأساليب الاستهلاكية الأساسية نفسها ويظهرون تفضيل «الماركات العالمية» نفسها فى الموسيقى وأفلام الفيديو وقمصان التى ـ شيرت. ويتساءل التقرير: ما هى النتائج؟ «أولاً، أصبحت هناك أمام كثيرين من المستهلكين مجموعة كبيرة من الاختيارات ـ ولكن الكثيرين أيضاً من المستهلكين تركوا فى العراء لافتقارهم إلى الدخل الكافى. كذلك تتصاعد ضغوط التنافس فى الإنفاق. وتحولت 'مجاراة الغربيين' من السعى إلى محاكاة استهلاك أقرب الجيران إلى السعى وراء أسلوب حياة الأغنياء والمشاهير التى تصورها الأفلام والعروض التليفزيونية».

اذهب فقط لزيارة أى دولة نامية اليوم وسوف تشهد تلك الفجوات الغائرة منتشرة هنا وهناك فى كل ركن منها. حينما كنت فى زيارة لمدينة ريو دى چانيرو ذهبت لإجراء مقابلات صحفية مع الناس المقيمين فى حى الفقراء العشوائى (الفاڤيلا Favela) بمنطقة روسينها Rocinha، وهو حى من الأكواخ والبيوت المؤقتة المكتظة بالسكان، وتعتبر أكبر حى عشوائى فى أمريكا الجنوبية. لاحظت ونحن متجهون بالسيارة نحو الفاڤيلا أن الطريق تفرع إلى ثلاثة اتجاهات مثل الشوكة. إذا اتجهت يميناً، فإنك تخرج عن طريق السيارات وتمر بمنطقة من الحدائق التى شذبت أغصانها، إلى حيث توجد المدرسة الأمريكية فى ريو، التى تعتبر أغلى مدرسة فى البلاد، إذ تصل مصاريفها إلى 2,000 دولار شهرياً. وتقع المدرسة فى قلب حى جاڤيا، وهو من ألطف أحياء ريو، وتفرض قيود مشددة على الالتحاق بهذه المدرسة. وإذا

اتجهت نحو اليسار فى التقاطع نفسه فإنك تدخل إلى حى فافيلا بمنطقة روسينها، حيث يسكن الكثيرون من الناس ممن لا يصل دخلهم إلى 2,000 دولار سنوياً كما أن الالتحاق به، سوف نقول، إنه بلا قيود. حسناً، ينحشر فى الفافيلا أكثر من 100 ألف شخص. فإذا واصلت البرازيل نموها الاقتصادى فربما يمكن أن يستمر التعايش فى هذا التقاطع سياسياً. أما إذا تباطأ هذا النمو فى البرازيل حقيقة فإن مفترق الطرق هذا قد يشطر البلاد إلى نصفين.

وقد اضطر الرئيس البرازيلى فيرناندو هنريك كاردوزو، حتى يتسنى لبلاده ارتداء قميص القيد الذهبى بإحكام أكبر لإرضاء القطيع الإلكترونى، إلى خفض الإنفاق على التأمينات الاجتماعية فور إعادة انتخابه فى أكتوبر عام 1998. كتبت ديانا جين شيمو مراسلة *نيويورك تايمز* فى البرازيل مقالاً عن بعض من انحشروا فى هذا القميص نتيجة لذلك. وكان كادروزو فى ذلك الوقت يعانى بالفعل من مشكلة سياسية مع شعبه بعد أن وصف أولئك الذين يرغبون فى التقاعد والحصول على التأمينات الاجتماعية بأنهم «متبطلون». قالت لى شيمو قصة أحد هؤلاء العمال، اسمه نيلتون تامبارا، عامل معادن متقاعد يبلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً، بدأ العمل وهو فى سن الحادية عشرة ودفع فى نظام التأمين الاجتماعى البرازيلى طوال ثلاثة وثلاثين عاماً من مجموع الواحد والأربعين عاماً التى عمل فيها.

تساءل تامبارا وهو يقف خارج مركز وال ـ مارت للتسوق فى ساو پاولو، يشكو من أنه لا يتحمل شراء سلم من الألومنيوم ثمنه 16 دولاراً: «ألا توجد طريقة لكى يظل الإنسان هادئاً فى هذه البلاد؟ إن الفئات التى تتحدث عنها الحكومة ـ الأغنياء والطبقة الوسطى والفقراء ـ ليس لها وجود. فلم يعد يوجد سوى الأغنياء والبؤساء».

وفى القاهرة العاصمة المصرية، هناك نحو 500 ألف نسمة يعيشون داخل المقابر فى «مدينة الموتى» ـ وهى عبارة عن مدافن تقع على مساحة خمسة أميال مربعة فى

قلب العاصمة المصرية. ولكن مدينة الموتى تقع على بعد أقل من عشرة أميال من أحدث مجمع لملاعب الجولف فى مصر ـ ويسمى تلال القطامية، وهو واحد من تلك المجمعات المتعددة التى يعيش فيها بضع مئات من العائلات فى واحة من المنازل والحدائق والبحيرات الصناعية والنافورات والفنادق. والكلمات التى صيغ بها الإعلان عنها، الذى تجده على الإنترنت، تفخر بما يلى: «تلال القطامية منتجع يوفر كل سبل الحياة الرغدة لأولئك الذين يحبون خوض مباريات الجولف أو التنس ومتع الأنشطة العائلية فى بيئة صحراوية نظيفة. ويبرز المنتجع 27 حفرة لبطولات الجولف، ومرافق التدريب، وأكاديمية لتعلم الجولف، ونادى شديد الترف مساحته 50 ألف قدم مربع، تنتشر به المطاعم والاستراحات وحمامات السباحة والمرافق الصحية والترويحية. ويبلغ سعر تذكرة دخول ملاعب الجولف، بما فى ذلك الانتقال من القطامية وإليها 165 دولاراً للفرد». وكان دخل الفرد فى عام 1998 فى مصر 1410 دولارات فى السنة ـ أى ما يكفى لتسع دورات من الجولف.

تايلاند دولة انشطرت بحدة بين طبقة متمدينة من العاملين بالتصدير وأصحاب الأعمال الذين يعيشون فى الأحياء المالية والصناعية فى البلاد ويستمتعون بكثير من مزايا العولمة، وقطاع ريفى فقير ومنكفىء على ذاته، ومع أنه متأثر بالعولمة بطريق غير مباشر، إلا أنه قليل الفهم لها ولا يرى منها سوى القليل من المزايا. وعندما انهارت عملة الباهت التايلاندية فى عام 1997 لم يشعر القطاع الريفى فى تايلاند، الذى ما زال يعيش بالدرجة الأولى على ما تنتجه الأرض الزراعية من ثمرات، بكثير من التعاطف مع سكان المدن المتأنقين المتعولمين (أى السائرين فى درب العولمة) الذين قضى عليهم مع قرار الحكومة بالتخلى عن دعم الباهت وتركه عائماً ليهوى سعره إلى القاع.

فى ذلك الوقت خرج المغنى التايلاندى بلوين برومدان بأغنية من نوع الانتقاد القاسى للبلاد بعنوان «الباهت العائم». وتتألف الأغنية من حوار بين مصرفىّ ومزارع.

وقد قمت بترجمة معانى جزء منها هنا لأنها تلتقط بذكاء شديد كيف يمكن أن تتسع الفجوة بين المتعولمين وغير المتعولمين فى المجتمع، إذا لم يلتفت إليها، حتى تصل إلى نقطة قد لايستطيع عندها الناس الذين يتحدثون اللغة نفسها فهم بعضهم بعض، ناهيك عن الشعور بوجود رابطة مشتركة بينهم.

وإليكم ترجمة تقريبية: تبدأ الأغنية باللازمة التالية، «باهتنا يعوم الآن، باهتنا يعوم الآن، كم من الوقت سيظل عائماً أمر يعتمد على الظروف. من فضلك راقب الظروف بدقة».

المصـــرفى: «أوكى، انظروا جميعاً، اليوم أصبح باهتنا عائماً بالفعل.

المـــــزارع: «بالأمس، سقط طفل عمره سنتان فى النهر ولكنه لم يمت».

المصـــرفى: «كيف ذلك؟ ما الذى منعه من الغرق؟»

المـــــزارع: «نعم سقط الصغير فى الماء، وظل الناس يرقبونه وهو يغطس ويقب، ثم نزل الناس مسرعين إلى النهر ووجدوا أنه متعلق بالباهت العائم».

المصـــرفى: «ألا تفهم؟ إننى أتحدث عن تعويم عملتنا».

المـــــزارع: «حسناً، لولا الباهت العائم لغرق الصغير».

المصـــرفى: «إننى أتكلم عن تعويم العملة، يا غبى».

المـــــزارع: «حسناً، لماذا تقول لنا ذلك؟ ما أهمية ذلك؟»

المصـــرفى: «أنا أقول لكم لأنه يجب عليكم أن تهتموا بذلك، أقول لكم لأننى أخشى ألا تكونوا قد علمتم».

المـــــزارع: «ما الذى يدعونا إلى الانشغال بمثل هذه الأشياء؟»

المصـــرفى: «هذه أفكار فلسفية عليك التفكير فيها».

المـــزارع: «مـا الذى يجـعلنى أرغب فى التـفكيـر فى ذلك؟ نحن لسنا فلاسفة».

المصـــرفى: «أنت مغفل».

المـــزارع: «فعلاً، لو لم أكن مغفلاً لكنت رئيساً لأحد البيوت المالية». [أفلست معظم البيوت المالية عندما انهار الباهت].

لازمـــة: «باهتنا يعوم الآن. عندما يعوم الباهت تعوم أسعار كل السلع أيضاً».

المصـــرفى: (كمن يلقى محاضرة): «عندما يعوم الباهت، تعوم أسعار السلع إلى هذا المستوى. وأسعار السلع تتحرك أيضاً إلى أى مستوى يعوم إليه الباهت على مدى يوم أو اثنين. كل شىء يعوم إلى أعلى، ولا شىء يعوم إلى أسفل. هذه هى طبيعة الأشياء».

المـــزارع: «إذن لماذا تشكو وتئن طوال الوقت؟»

المصـــرفى: «إننا نشكو ونصيح ونلعن، وفى النهاية نخرج إلى الشوارع فى مظاهرة ونغلق الطرقات، وسوف ينتبه إلينا الناس، ويتعاطفون معنا، ويساعدوننا فى حل المشكلة».

المـــزارع: «لماذا أنت متلهف هكذا على حل المشكلة؟»

المصـــرفى: «حتى تصبح الأمور أفضل، يا أبله».

المـــزارع: (يضحك فى وجهه): ها، ها، ها، انظر إلى نفسك وأنت تصرخ مثل الأطفال. لقد كنت عاقلاً تماماً وها أنت تصيح فجأة».

المصـــرفى: «أيها الأبله».

لازمـــــة: «الباهت أصبح الآن ضعيفاً جداً ولم يعد قوياً كما كان من قبل ويسبب لنا كل أنواع المشاكل. لقد ارتفعت أسعار كل شيء اعتدنا شراءه».

المصـــرفى: «أموال تايلاند تتدفق خارج البلاد، ولكن الأموال الأجنبية لا تتدفق داخل البلاد. الشعب التايلاندى يحب أن يتدفق خارجاً إلى الدول الأجنبية لقضاء الإجازات. إنهم يذهبون ويجيئون ويشترون الأشياء وهم فى الخارج».

المـــــزارع: «حسناً، هم يحبون أن يفعلوا ذلك لأن عندهم المال. إنها أموالهم. إذن فأين هى المشكلة؟»

المصـــرفى: إنها مع ذلك ما زالت أموال تايلاند التى يخرجون بها، والأمر يزداد تدهوراً عندما يخرجون بالأموال إلى خارج البلاد. والباهت التايلاندى يفقد قيمته، ثم يحدث فقد لرؤوس الأموال اللازمة للاستثمار أيضاً».

المـــــزارع: «كيف تعلم ذلك؟»

المصـــرفى: «إنها موجودة فى الأخبار كل يوم وكل أسبوع. ألا تتابع الأخبار؟»

المـــــزارع: «إننى لا أستمع إلى الراديو قط. ولا أقرأ قط. ولا يهمنى أى شيء فى هذا الموضوع كله. إننى لا أهتم إلا بالملاكمة التايلاندية وبطولة كرة القدم».

المصـــرفى: «من فـضلك انظر حـولك وأعط بعض تفكيـرك واهتـمـامك لمشكلات البلاد».

المـــــزارع: «أخشى أن يفقد الملاكم التايلاندى البطولة أمام ملاكم أجنبى. أليس ذلك ما يجب أن يقلق الإنسان بشأنه؟»

المصـــرفى: ألا تعلم أن بلادنا اقترضت مبالغ هائلة من الخارج؟»

المـــــزارع: «كم يا ترى؟»

المصـــرفى: «قروض ضخمة، قروض هائلة. يالك من أبله. إنك لا تفهم كلمة واحدة مما أ قول، أليس كذلك؟ إننى أضيع جهدى فى الحديث معك. إنك عندما تقترض هذه الأموال من الخارج فعليك أن تسددها».

المـــــزارع: ألا يحق للرجل الذى اقترض المال أن يستمتع به؟»

المصـــرفى: إنهم أمثالك ممن يخربون البلاد ويضيعون الأموال هباء. إنك جزء من الأمة التايلاندية، الأسرة التايلاندية المسئولة عن هذا الإسراف. إننا جميعاً ضالعون فى ذلك».

المـــــزارع: «أوه، ولكننى غير متزوج. وليست لى أسرة».